ما كل ما يتمنى المرء يدركه

اتصل بأبي الطيب أن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب فقال ولم ينشدها كافوراً:

[البسيط]

بِـمَ الـتَّـعَـلُّـلُ لَا أَهْـلٌ وَلَا وَطَـنُ
وَلَا نَـديـمٌ وَلَا كَـأْسٌ وَلَا سَـكَـنُ(١)

أُريـدُ مِـنْ زَمَـنِـي ذَا أنْ يُـبَـلِّـغَـنِـي
مَـا لَـيْـسَ يَـبْـلُـغُـهُ مِـنْ نَـفْـسِـهِ الـزَّمَـنُ(٢)

لَا تَـلْـقَ دَهْـرَكَ إِلَّا غَـيْـرَ مُـكْـتَـرِثٍ
مَـا دَامَ يَـصْـحَـبُ فِـيـهِ رُوحَـكَ الْـبَـدَنُ(٣)

فَـمَـا يَـدِيـمُ سُـرُورٌ مَـا سُـرِرْتَ بِـهِ
وَلَا يَـرُدُّ عَـلَـيْـكَ الْـفَـائِـتَ الْـحَـزَنُ(٤)

---

(١) التعلّل بالشيء: التلهي به. السكن: الصديق تسكن إليه وتأنس به. يبدأ الشاعر قصيدته، وملء قلبه الأسى، وهو في غربة قاتلة، بعيداً عن الوطن وادي ملعب طفولته وموئل شبابه، وبعيداً عن الأهل الذين يشعرون بشعوره، يفرحون لفرحه ويتألمون لألمه ويبكون لبكائه، حتى المنادم قد افتقده، فلمن يشكو ما به من لوعة وحزن؟ حتى المسكن الذي يسكنه بارد لا حرارة فيه، فلا صديق ولا خليل يعرّي نفسه أمامه، فيكشف عن ألم نفسه بلا خوف وبلا رقيب يُحصي عليه سكناته وهمساته. لقد انعدمت كلّ وسائل اللهو والمرح.

(٢) إن الشاعر يتمتّع بقوّة شحن من الأماني والأحلام بحيث لا يقدر الزمان على تلبية رغبته، والزمن بدوره لا يستطيع فعل شيء لأنه سبيل رغم تحوّله وتبدّل أحواله، فهو عاجز عن تغيير مجراه لأنه مفطور على سنن وقوانين فطره اللّه تعالى عليها.

(٣) و (٤) يخاطب الشاعر نفسه، وهو يعزم على ألّا يهتمّ بالزمن فعلى المرء ألّا يكترث لنوائب الدهر، فسرعان ما تزول وتختفي آثارها؛ فالمهم بقاء روح تدبّ في الإنسان وتجعله قادراً على الكفاح والنضال. والسرور حالة وهمية يزول بزوال أسبابه والحزن على ما فات لا يُرجعه، لذا فعلى الإنسان ألّا يتأثر بطوارق الزمان ومفاجآته، فسرعان ما تتبدّل الأحوال. يحاول الشاعر أن يشدّد من عزيمته حتى يكون له ما أراد تحقيقه في عمره.

مِـمَّـا أَضَـرَّ بِـأَهْـلِ الْـعِـشْـقِ أَنَّـهُـمُ
هَـوُوا وَمَـا عَـرَفُـوا الـدُّنْـيَـا وَمَـا فَـطِـنُـوا[١]
تَـفْـنَـى عُـيُـونُـهُـمُ دَمْـعـاً وَأَنْـفُـسُـهُـمْ
فِـي إِثْـرِ كُـلِّ قَـبِـيـحٍ وَجْـهُـهُ حَـسَـنُ[٢]
تَـحَـمَّـلُـوا حَـمَـلَـتْـكُـمْ كُـلُّ نَـاجِـيَـةٍ
فَـكُـلُّ بَـيْـنٍ عَـلَـيَّ الـيَـوْمَ مُـؤْتَـمَـنُ[٣]
مَـا فِـي هَـوَادِجِـكُـمْ مِـنْ مُـهْـجَـتِـي عِـوَضٌ
إِنْ مُـتُّ شَـوْقـاً وَلَا فِـيـهَـا لَـهَـا ثَـمَـنُ[٤]
يَـا مَـنْ نُـعِـيـتُ عَـلَـى بُـعْـدٍ بِـمَـجْـلِـسِـهِ
كُـلٌّ بِـمَـا زَعَـمَ الـنَّـاعُـونَ مُـرْتَـهَـنُ[٥]

(١) فطنوا: انتبهوا وتذكروا. يرى الشاعر أن من أولع من بني البشر بشيء وكرّس له حياته وأفنى نفسه من أجل ذلك فقد كان مخطئاً، لأنه لو أدرك ما عليه الدهر والبشر من غدر وما يكتمون في نفوسهم من مكر لبعضهم البعض، لما أفنى عمره عبثاً في محاولات لا طائلة منها لفشلها في تحقيق أغلى أمانيه في الخلود والعظمة.

(٢) فالمحبون يسكبون دموعهم ويُفنون أنفسهم في سبيل من لا يقدر فيهم شفافية الأحاسيس ونبل العواطف، فأولئك قد استمدوا قوتهم وبالتالي قسوتهم بما تمتّعوا به من جمال المنظر وقبح المخبر، من خلق مستكره.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٧٣. تحملوا: ارتحلوا. الناجية: الناقة السريعة. البين: الفراق. يُعلن الشاعر الطلاق بينه وبين سائر البشر طالباً منهم الرحيل والبعد عنه، فقد آلمه نكرانهم له وتجنّيهم عليه، لذا يتمنى البعد عنهم ليتخلّص من مكرهم وزيفهم، فيعيش آمناً منهم ومن كيدهم.

(٤) الهوادج، الواحد هودج: مراكب النسوة. المهجة: الروح. الشوق: شدّة الحبّ. يتابع الشاعر مندّداً بهم: إنهم لا يستحقّون دمعة حزينة على فراقهم، فليحملوا معهم كلّ شيء وليتركوا له مهجته، التي بها حياته وحياته عزيزة عليه، لن يتخلّى عنها مهما تكن الأسباب، إنها أغلى أمانة على قلبه.

(٥) نعى: أعلن موت أحد الناس. يُخاطب الشاعر سيف الدولة وقد وصله إذاعة شائعة كاذبة أن الشاعر قد توفّي، ولم تكن المرة الأولى التي ينعى فيها خبر موته، وهو في كلّ مرة يموت ثم ينبعث حيًّا، لذا فلا يفرح أحد بنعي، فكأس الموت دوّار.

كَمْ قَدْ قُتِلْتُ وَكَمْ قَدْ مُتُّ عِنْدَكُمُ
ثُمَّ انْتَفَضْتُ فَزَالَ الْقَبْرُ وَالْكَفَنُ[١]

قَدْ كَانَ شَاهَدَ دَفْنِي قَبْلَ قَوْلِهِمِ
جَمَاعَةٌ ثُمَّ مَاتُوا قَبْلَ مَنْ دَفَنُوا[٢]

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ
تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ[٣]

رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُ الْعِرْضَ جَارُكُمُ
وَلَا يَدِرُّ عَلَى مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ[٤]

جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلٌ
وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضَغَنُ[٥]

وَتَغْضَبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ
حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِيصُ وَالْمِنَنُ[٦]

---

(١) يرد الشاعر أن أمر النعيّ ليس جديداً، فلطالما نُعي ولطالما مات، وفي كلّ مرة يبعث حيًّا، فإذا بالقبر ينفرج عن مارد يُمزّق الأكفان عنه معلناً تجدّد الحياة في برديه.

(٢) إنها سخرية القدر فثمّة من شاهد واقعة دفن الشاعر، فإذا به يكفّن ويُدفن قبله، وها هو يسخر منهم ومن إشاعاتهم وافتراءاتهم.

(٣) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٨٦، مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٢٠٠، معاهد التنصيص، للعباسي ١: ٥٢. ثمة من يُضمر الشرّ ويتمنّى الموت للشاعر، فإذا بهم يعودون بالخيبة والخسران، فالبشر تمخر بهم سفينة الحياة ويتمنّون سيرها وفق إرادتهم فإذا بالرياح تأتي عاتية فتغيّر مجرى سيرها، وتنقلب بهم فيبتلعهم اليمّ فيُصبحون من الهالكين.

(٤) و (٥) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٨. يصون: يحفظ ويرعى. العرض: ما يمدح فيه المرء أو يُذمّ. الضعن: الكراهية والحقد. يُندّد الشاعر بسيف الدولة، فجاره تُنتهك محارمه ويُداس عرضه ويلوّث شرفه، والخير في دياره لا يُثير خيراً، بل بالعكس فمراعيه لا تنتج لبناً صافياً بل هو ممزوج بالكراهية والحقد؛ فالقريب المحبّ للأمير جزاؤه الإهمال والملل من جانب الأمير ولا يلقى سوى الحقد الممزوج بالتمرّد والتكبّر والإجحاف بحقّ الآخرين.

(٦) وردت الأبيات الثلاثة المتتالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. الرفد: =

فَـغَـادَرَ الْـهَـجْـرُ مَـا بَـيْـنِـي وَبَـيْـنَـكُـمُ
يَـهْـمَـاءَ تَـكْـذِبُ فِـيـهَـا الْـعَـيْـنُ وَالْأُذُنُ(١)

تَـحْـبُـو الـرَّوَاسِـمُ مِـنْ بَـعْـدِ الـرِّسِـيـمِ بِـهَـا
وَتَـسْـأَلُ الْأَرْضَ عَـنْ أَخْـفَـافِـهَـا الـثَّـفِـنُ(٢)

إنـي أُصَـاحِـبُ حِـلْـمِـي وَهْـوَ بِـي كَـرَمٌ
وَلَا أُصَـاحِـبُ حِـلْـمِـي وَهْـوَ بـي جُـبُـنُ(٣)

وَلَا أُقِـيـمُ عَـلَـى مَـالٍ أَذِلُّ بِـهِ
وَلَا أَلَـذُّ بِـمَـا عِـرْضِـي بِـهِ دَرِنُ(٤)

= العطاء. التنغيص: تكدير العيش. المنن، الواحدة منة: التذكير بفضائل المنعم على المنعَم عليه. يُردف الشاعر تقريعه لسيف الدولة، فما تفضّل له به لم يخلص من تكديره بذكر تلك الفضائل دائماً، فكأنه تقريع وتسميم لنبل العطاء. أين الإشادة بجود الأمير وذكر فضائله هل كان الشاعر محرفاً للحقائق؟ أم أن ذلك عادة شعراء التكسب في التزيد في سيل المدائح؟!

(١) اليهماء: الأرض التي لا يهتدى فيها لكثرة مخاوفها. يدعو الشاعر متمنياً أن تترامى المسافات بينه وبين سيف الدولة في أرض فلاة يضيع فيها السالكون فلا يهتدون فيها إلى منافذ الرجاء كثيرة المخاوف حيث تتراقص الأشباح فتُكذّب العيون ما ترى والآذان ما يخيّل لها أنها تسمع.

(٢) تحبو: تمشي زحفاً على يديها ورجليها. الرواسم: الإبل التي تمشي. الرسيم: ضرب من السير السريع. الثفن، الواحدة ثفنة: ما يمس الأرض من أعضاء البعير إذا برك. يُتابع الشاعر وصف الحالة التي عليها تلك اليهماء، تتسع وتمتدّ آفاقها حتى إن الإبل الرواسم تتآكل أخفافها لشدّة السير وصعوبته، فإذا بها تستعيض عن ذلك بالحبو فتزحف على يديها ورجليها فلا تصل إلى طريق النجاة.

(٣) يفتخر الشاعر بأنه حليم كريم الخلق يعفو عن المسيء لقدرته عليه، فإذا اعتقد عدوّه أن ذلك جبن منه، انتفضت كرامته من غفوتها، فكانت ردّة فعله عنيفة، لا ترحم.

(٤) الدّرن: الوسخ. يُردف الشاعر منوّهاً بأنفته أنه لا يقبل بمال يجرّ عليه ذلّاً ومهانة، فهو على استعداد لتركه، لأنه ليس بحاجة إليه على حساب كرامته، لذا فإنه لا يستطيب شيئاً يشوّه عرضه ويلطخه درنه، فهو حريص على نقاء وطهارة ذيله من كلّ ما يُدنّسه.

سَـهِـرْتُ بَـعْـدَ رَحِـيـلـي وَحْـشَـةً لَـكُـمُ
ثُـمَّ اسْـتَـمَـرَّ مَـرِيـرِي وارْعَـوَى الْـوَسَـنُ (١)
وَإِنْ بُـلِـيـتُ بِـوُدٍّ مِـثْـلِ وُدِّكُـمُ
فَـإِنَّـنِـي بِـفِـرَاقٍ مِـثْـلِـهِ قَـمِـنُ (٢)
أَبْـلَـى الْأَجِـلَّـةَ مُـهْـرِي عِـنْـدَ غَـيْـرِكُـمُ
وَبُـدِّلَ الْـعُـذْرُ بِـالْـفُـسْـطَـاطِ وَالـرَّسَـنُ (٣)
عِـنْـدَ الْـهُـمَـامِ أَبِـي الْـمِـسْـكِ الَّـذِي غَـرِقَـتْ
فِـي جُـودِهِ مُـضَـرُ الْـحَـمْـرَاءِ وَالْـيَـمَـنُ (٤)
وَإِنْ تَـأَخَّـرَ عَـنِّـي بَـعْـضُ مَـوْعِـدِهِ
فَـمَـا تَـأَخَّـرُ آمَـالِـي وَلَا تَـهِـنُ (٥)

(١) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٩. استمرّ مريري: قويت بعد ضعف ألمّ بي. ارعوى: ارتدع. الوسن: النعاس. يُخاطب الشاعر سيف الدولة، لقد عانى الأمرين جرّاء ترك بلاط الأمير حيث الاستقرار والأمن، فدبّ فيه الوهن ولكنه عاد فتماسك وقوي بعد ضعف فإذا به ينام ملء عينيه لا يُقلقه همّ وتسهيد، ومع مرور الزمن نسي جراحات نفسه.

(٢) قمن: جدير. يُردف الشاعر أنه لن يستكين لضعف ينال من عزيمته، إنه الآن في كنف ممدوح جديد، فإن ناله منه ما ناله من الأمير، فإنه لن يستكين في كنفه، وسيرحل عنه ذات يوم غير آسف، وفي مقالته هذه تهديد مبطّن لكافور، وهو قادر على ذلك.

(٣) الأجلّة، الواحد جلال: لباس الدابة. العذر، الواحد عذار: ما سال على خدّ الحصان من اللجام. الفسطاط: مصر القديمة. الرسن: الحبل. يفخر الشاعر بما لقيه من تكريم في كنف كافور، حتى إنه أبلى جلال فرسه وعذره ورسنه فأبدلها بغيرها. فدلّ على تقادم عهده في رعاية كافور له. يبدو أن الشاعر متمرد دائماً لا يثبت على ودّ، مهما لقي من تكريم، فلا بدّ له من الانقضاض على ضحيّة خالفت ما يأمله منها من تكريم واحترام في نظره.

(٤) الهمام: الملك العظيم. يمدح الشاعر كافوراً إمعاناً بالكيد للأمير فكافور بحر يغوص فيه من يبغي الغنى لكرمه وجوده، فلقد غاصت في كرمه مضر الحمراء ووصل رفده إلى بلاد اليمن، يُنعم بماله ولا يسأل عوضاً.

(٥) يروى «بعض نائله» بدلاً من «بعض موعده». تهن: تضعف. يُنوّه الشاعر بكرم =

هُــوَ الْــوَفِــيُّ وَلٰــكِــنِّــي ذَكَــرْتُ لَــهُ
مَــوَدَّةً فَــهْــوَ يَــبْــلُــوهَــا وَيَــمْــتَــحِــنُ(١)

وإذا لم يكن من الموت بد

ومما قال بمصر ولم ينشدها الأسود ولم يذكره فيها:

[الخفيف]

صَــحِــبَ الــنَّــاسُ قَــبْــلَــنَــا ذَا الــزَّمَــانَــا
وَعَــنَــاهُــمْ مِــنْ شَــأْنِــهِ مَــا عَــنَــانَــا(٢)
وَتَــوَلَّــوْا بِــغُــصَّــةٍ كُــلُّــهُــمْ مِــنْــ
ـهُ وَإِنْ سَــرَّ بَــعْــضَــهُــمْ أَحْــيَــانَــا(٣)
رُبَّــمَــا تُــحْــسِــنُ الــصَّــنِــيــعَ لَــيَــالِــيــ
ـهِ وَلٰــكِــنْ تُــكَــدِّرُ الْإِحْــسَــانَــا(٤)

= كافور، فهو يُسارع بعطاياه، فيزيده منها فوق ما يأمل منه، لذا فأمله به كبير أن يُلبي مبتغاه ولا يتأخر في ما وعده بإنجازه ذات يوم، إنه يلمّح بوعده بولاية من قبل كافور.

(١) يبلوها: يختبرها. يُحاول الشاعر أن يُمني نفسه بأن يفي كافور بوعده ذات يوم، والتأخير من قبله بمثابة امتحان لصبر الشاعر حتى ينال جائزته وأمنيّته.

(٢) عنانا: أهمّنا. يبدأ الشاعر قصيدته ناعياً على البشر تكالبهم على الحياة، إنهم من لحم ودم، وإن اختلفت مشاربهم وآراؤهم وعقولهم فثمة همّ يعنيهم يتمحور حول توفّر حياة كريمة قدر الطاقة وتبعاً للظروف، وعلاقتهم مع الزمان علاقة صراع يتمحور حول النصر والهزيمة والحبّ والبغض و... و...

(٣) تولّوا: رحلوا. الغصّة: الشعور بالألم والحزن. يُردف الشاعر أن المرء قد يُصادف لحظات فرح وسرور، ولكن سرعان ما تمضي تلك السانحات لتخلّف المرارة في نفس المرء فيئن الرحيل دون سابق إنذار فيخرج من أتون الحياة إلى رحاب الموت خالي الوفاض والحسرة غصّة في الحلق.. إنها نظرة متشائمة لتوالي النكبات على الشاعر.

(٤) يُعقّب الشاعر ناعياً على الدهر تقلّبه وعدم استمراره على نهج واحد فهو قد يُوافي المرء بما يسعده فيُفرح ولكن سرعان ما يقلب له ظهر المحن فيبتليه بما يُحزنه ويُؤلمه فيكدّر ما قدّم من حسنات فإذا بها تسوء وقد صبغت بالألم والعذاب.